فكاهات

رواية

حفظ العهود (١)

كان لاحد نبلاء الانكليز ولدٌ وحيد بين خمس اخوات فعني بتربيته على قواعد الفضيلة وتهذيبهِ باشرف الآداب والعلوم ولا سيما وان الاب كان قد طعن في السن وشعر بقرب الاجل فاحب ان يموت مطمئن القلب موطد الامل بوجود من يحيي اسمهُ من بعدهِ ويقوم بسياسة الاملاك الواسعة والثروة الطائلة ويكون عضداً للفتيات الخمس ووالدتهنَّ . وكان الولد واسمهُ هنري قد تلقى من والدتهِ منذ حداثتهِ الآداب الدينية والاخلاق الحسنة وادرك انهُ سيكون يوماً ما هو الخليفة الوحيد لوالدهِ فلم يكن يميل كباقي اولاد العظماء الى الترف واللهو والاسراف فشب فتًى حريصاً طائعاً لطيفاً مكمَّل الصفات الادبية ولما حان زمن ارسالهِ الى المدرسة الجامعة اخذهُ اليها والدهُ وسلمهُ الى حراسة الله وعناية الاساتذة . وبقي هنري في المدرسة بضع سنوات عاد في نهايتها على غاية ما كان والدهُ يتمنى فتلقاهُ بوجهٍ طافٍ وضمهُ الى صدره وقد ايقن منهُ بالخلف الصالح الذي يحيي اسمهُ ويكون عضداً لمن يليهِ . ثم خطر لهُ انهُ لا بد ان يكون في حاجة الى ترويح النفس

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

من عنآء الدرس فنقدهُ مبلغاً من المال وامرهُ ان يذهب فيتجول مدةً في عواصم اوربا او حيث شآء ثم يعود اليهِ بعد ان يكون قد اكتسب صحةً ونشاطاً فيسلم اليهِ مقاليد الاشغال . فجهز هنري لوازمهُ وودع آلهُ وسافر متنقلاً من مكان الى مكان ومن بلدةٍ الى اخرى . وفي اثنآء الطريق تعرَّف برفيقٍ يدعى برتران فسألهُ هنري عن وجهتهِ فقال اني قاصدٌ مونت كرلو . فقال هنري وما عسى ان يكون هذا المكان . قال هو فردوس الهوى فيهِ غياض وادواح واوجهٌ ملاح وما شئت من لهوٍ وافراح . قال هنري اظنني قد سمعت بهِ في انكلترا وهذا المحل تقصدهُ الاغنيآء للمقامرة وقتل الوقت بالخلاعة . قال برتران انهُ لكذلك وقد دعاني بعض اصدقآئي لموافاتهِ الى هناك فانا منطلقٌ اليهِ . قال هنري اما انا فلا ناقة لي في هذا المكان ولا جمل واني لآسف أني سأفارقك من الآن . فجعل برتران يزيّن لهنري المكان ويغريهِ بمرافقتهِ قائلاً ان لم يكن لك ميلٌ الى المقامرة فامامك الغادات الحسان وان كنت لا تميل الى هؤلآء ايضاً فهنالك من المناظر الطبيعية وجودة الهوآء وحسن الموقع ما لا بد انك تستحسنهُ . وما زال عليهِ حتى وعدهُ بالذهاب معهُ

ولما بلغا مونت كرلو انغمس برتران في اللعب واللهو واما هنري فأوى الى نزلٍ كان يقيم به معظم اوقاتهِ ويتجول احياناً في ضواحي المدينة للانتعاش بهوآئها الرطب ونسيمها العليل . وكان في النزل المقيم فيهِ هنري فتاةٌ تتعاطى الخدمة فلما وقع نظر هنري عليها اخذت بمجامع فؤادهِ وتأمل في هيئتها فرأى ملَكاً في صورة بشر فجعل يترقب الفرص لمحادثتها ثم اخذ

يفحص معارفها فوجدها اديبة مهذّبة قد تجسد فيها طيب الخُلق ورقيق الاحساس وكان كلما كلمها وسبر طباعها يزيد هيامهُ فيها . وسألها يوماً عما الجأها الى تعاطي تلك المهنة وقد كان في امكانها ان تكون على حالٍ افضل مما هي فيهِ . فتنهدت بتأوهٍ وقالت قد القاني حظي الى هذا المكان بارادةٍ قادرة لم يمكني مقاومتها واني لصابرة على حكم القضآء الى ان تنشاني من هنا يد العناية . وادرك هنري ان للفتاة سرًّا لا تحب ان تبوح بهِ فلم يزد في البحث عما هنالك غير انهُ ما زال يظهر تودده للفتاة الى ان كاشفها اخيراً بمحبتهِ وتبادلا العهود الوثيقة على الامانة والوفآء وتواعدا على الاقتران بعد ان تكون هي قد تممت زمن خدمتها ويكون هو قد رجع الى بلادهِ وحصل على رضى والديه . وبعد ان مكث هنري هنالك شهراً ودّع الفتاة وكان اسمها متيلدا وسافر راجعاً الى وطنه

وبعد ان رجع هنري الى والدهِ اخذ يترقب الفرص لمفاتحتهِ بالامر وكان والدهُ يودّ ان يزوّجهُ قبل وفاتهِ فلما اخذ هنري يسرد لهُ اوصاف الفتاة وآدابها ومعارفها برقت اسرّتهُ واظهر سرورهُ العظيم ولكنهُ لما علم ان الفتاة خادمة نزل في مونت كرلو انقلبت سحنتهُ فجحظت عيناهُ وتطاير الشرر من مقلتيهِ وصاح بولدهِ ماذا تقول ايها الغبيّ اتريد ان تتخذ لك امرأة تشاركك في حمل اسم هذه الأُسرة الشريفة وهي غانيةٌ من فنادق مونت كارلو . لقد سآءَ فألي ايها الولد العقوق وكنت فيما مضى اظنك مثال ابيك ولكنك لم تلبث ان كذّبت ظني وأريتني منك اخلاق السفلة اللئام فيا لضياع الامل ويا لخيبة المسعى . آه يا ليتني متُّ حين خروجك

من المدرسة لانني في ذلك الحين كنت اظنك تعزية شيخوختي وخاتمة سروري اما الآن فسأنزل الى قبري وفي قلبي حسرات بل حسرةٌ واحدة تميتني غمًّا وقهراً وهي ان ارى أُسرتي التي شرَّفها آبآئي وجدودي يهينها ولدٌ ضالٌّ نظيرك . اعلم يا هنري انني افضل ان ينقطع اسم هذه الأُسرة بوفاتي وتُدرَس جميع مآثرها من ان ارى فيك وارثاً يجلب على اسم آبآئهِ الدنآءة والعار فان بنات مونت كرلو لم يُخلقنَ ليمتزج دمهنَّ بدم اسرتي . واعلم يا هذا انك مخيَّرٌ بين امرين اما ان تقطع من هذه الدقيقة كل علاقةٍ مع هذه الفاجرة او ان تقطع من هذه الدقيقة نسبك بي

وكان هنري قد اجمتهُ مفاجأة والدهِ لهُ بهذه اللغة القاسية فوقف حيران كمن تتكسر النصال على اوصالهِ وهو لا يدري ماذا يفعل . وبعد ان صمت حيناً قال مهلاً يا ابتِ انك انت تقرُّ بحسن سيرة ولدك وتشهد لهُ بالعفة والادب فهل تعتقد انني لم افحص الفتاة فحصاً مدققاً وهل كنت آتيك بهذا الخبر لو لم اتحقق انها مثال العفة والطهر . فقال الوالد ولو كانت من ملائكة السمآء فكفاها انها في مونت كرلو . قال هنري عجباً يا والدي وهل تقلّ قيمة الذهب اذا وجد مطموراً في الاوحال والاقذار . قال قد كبرت عن ان اتعلم فلسفتك ولا احب الجدال فأجبني على سؤالي الاول في الحال . قال هنري ولكنك تحبّ مني ان اكون شريفاً والشرف يقوم بمحافظة الانسان على كلامهِ ومواعيدهِ فانا قد وعدت الفتاة ان لا اتزوج سواها ولا يمكنني ان احنث بميني . فقال الوالد وقد ارغى وازبد كالجمل الهائج اذاً تترك اسرتك من اجل هذه الفاجرة فاذهب من بيتي ايها الدنيء واعلم انني

من الآن ليس لي ولدٌ يرث اسمي فاختر لنفسك ما يحلو لك واياك ان تؤمل الغفران فانني قد نبذتك وجحدتك وطردتك واني لاسكب عليك لعنات والدٍ شيخ في دقائقه الاخيرة فلتصبّ عليك السمآء غضبها ولتُخرِج لك الارض مصائبها وليكسر الدهر قلبك كما كسرت قلب والدٍ ترجى فيك الخير فسآء فألهُ . أُغرُب من وجهي ايها الممقوت وانسَ ان لك والدَين واخوات . ولم يسمع هنري بقية كلام والده ولعناته لانهُ شعر بان الارض تهتزّ تحت قدميه وتخيل ان حجارة البنآء تتساقط على رأسه فخرج من البيت وهو لا يدري اين يذهب . وفيما هو منطلق رآهُ احد اصدقآء والده الاخصآء يسير على غير هدًى فتبعهُ ولم يتركهُ حتى قص عليه هنري الخبر كما وقع فأشار عليه الصديق ان يبتعد عن انكلترا وانهُ هو يسعى في استمالة والده في غيابه ثم اسلفهُ مقداراً من المال وسافر هنري مرةً ثانية من بلاده وهو يردد في ذهنه كلمات والده الاخيرة فيرى الارض امامهُ جحيماً متقدًا بالنار وهو قد دُفع اليه فلا يرجو الخلاص

ووصل في مسيره الى بلاد الهند فعزم على اتخاذها وطناً لهُ وتعاطى فن التجارة فيها وكان لا يفتر عن مكاتبة حبيبته فكانت اجوبتها تزيدهُ ولعاً بها وشوقاً اليها وثباتاً على عهد ودادها واسفاً على ممانعة ابيه في الاقتران بها . ودام الحال كذلك مدة سنتين الى ان جآء البريد مرّةً ولم يكن معهُ رسالة من حبيبته فأظلمت الدنيا في عينيه وزادت شجونهُ وهمومهُ ومرّ شهران ولم يردهُ خبر من جهتها ولم يعلم ما حلّ بها ولا سبب انقطاعها عن مكاتبته فكاد يفقد رشادهُ

وفي ذات يوم ورد عليهِ كتابٌ من صديقهِ في انكلترا ينعى اليهِ وفاة والدهِ ويبشرهُ بان الوالد لما شعر بحلول الاجل ندم على ما فعل بابنهِ فرجع عن قسمهِ وغفر لهُ وعيّنهُ الوارث الوحيد لاملاكهِ واسمهِ وشرفهِ والحّ عليهِ صديقهُ بالحضور سريعاً الى وطنهِ ليستولي على ميراثهِ . فحزن هنري حزناً عظيماً على وفاة والدهِ وتمنى لو قدر ان يراهُ قبل مفارقة الحياة لكي يتزوّد منهُ البركة الاخيرة . اما رجوع الميراث اليهِ فلم يسرّهُ كثيراً لانهُ كان قد سئم الحياة بعد انقطاع اخبار حبيبتهِ ولم يعد لهُ مطمع في العيش الهنيء ولكنهُ علم ان عليهِ واجباً طبيعياً لا سبيل الى التفادي منهُ وهو الاعتناء باخواتهِ بعد وفاة والدهِ فاسرع في قطع علائقهِ في الهند وركب سفينة مسافرة توًّا الى انكلترا فوصل اليها واستولى على ميراثهِ وشرع يهتم بامر املاكهِ ولكن اهتمام من يسعى لمنفعة غيرهِ ولا يهمهُ امر نفسهِ

وكان ساكناً في جوار منزلهِ رجلٌ من اعيان الانكليز طاعن في السنّ قد قضى معظم حياتهِ في الاسفار والتنقل من بلاد الى اخرى مراعاةً لصحتهِ ومسرّتهِ . فاتفق ان هذا النبيل كان غائباً كعادتهِ يوم وصول هنري الى وطنهِ ثم انهُ بعد مدة عاد من سفرهِ وكان قد لقي في ايطاليا فتاةً من اسرةٍ انكليزية قديمة فمال قلبهُ اليها واقترن بها وجآء بها الى قصرهِ . ولما استراح النبيل من وعكة السفر ذهبت اخوات هنري للسلام على زوجتهِ قياماً بحقوق الجوار ولم يذهب هنري معهنّ لشغلٍ منعهُ اذ ذاك . فلما انقضت الزيارة عادت اخواتهُ الى البيت وهنّ يثنينَ على العروس ويذكرنَ جمالها ورقتها ودعتها وحسن آدابها وشرعنَ في وصف ملامح وجهها وقوامها

ولباسها وحركاتها وحديثها كما هي عادة النسآء في مثل هذه الحال فكان هنري يسمع لهنَّ في اول الامر غير مبالٍ بما كنَّ يقلنهُ ولكنهُ لم يلبث ان تنبَّه لحديثهنَّ ثم صار يضطرب وينتفض كالعصفور لانهُ وجد ان الوصف الذي كنَّ يصفنَ بهِ العروس كان منطبقاً تمام الانطباق على حبيبتهِ التي لم يعرف اين موضعها ولا اين كانت

وبعد ايام صنع النبيل مأدبةً حافلة دعا اليها كثيرين من اصحابه ومن جملتهم هنري واخواتهُ فلما وقعت عين هنري على العروس اضطرب اضطراباً شديداً وخفق قلبهُ وتلعثم لسانهُ لانهُ رأى بها حبيبتهُ المفقودة فجآءَ وسلّم عليها وهو لا يدرك معنى كلامهِ فاستقبلتهُ بوجهٍ باشّ وسلّمت عليهِ سلاماً عادياً بمنتهى اللطف والرقة ولم تبدُ على محياها علامات الحبّ التي كان هنري يتوقع ظهورها . فتعجب وزاد قلقهُ ولكنهُ لم يقدر ان يطيل الحديث لان عدد المدعوين كان كبيراً وكان على ربة القصر ملاطفة الجميع والترحب بهم

وبعد الفراغ من الطعام صدحت الموسيقى وابتدأ الرقص فاغتنم هنري تلك الفرصة وسأل العروس ان ترقص معهُ فاجابتهُ ولما شرع في الرقص قال لها همساً ما اسرع ما نسيتني فالآن علمتُ سبب انقطاع كتبكِ عني . فنظرت اليهِ متعجبة وقالت لم افهم مرادك فاني لم اكتب اليك بتةً . قال ارجو ان تنزلي معي الى الحديقة فان الجميع مشتغلون الآن بالرقص ولي كلامٌ اقولهُ لكِ على انفراد . ثم قادها بيدها وسار بها نحو الحديقة فأجلسها تحت ظل شجرة ملتفة وجلس بجانبها وقال ماذا فعلتُ حتى احرقتِ قلبي بصدودكِ . ألم تعاهديني على الحب الصادق فلماذا نقضتِ عهودكِ . قالت

اني لا اعرفك يا هذا ولا اذكر اني رأيتك في حياتي فكيف تقول اني احببتك وعاهدتك وكتبت اليك . فما كان منهُ الا ان جثا على ركبتيهِ امامها والدموع تتساقط من عينيهِ وقال اذا شئتِ نسيان ما مضى فانا لكِ لاني احبكِ حباً لا استطيع لهُ وصفاً فانكري عهودكِ اذا شئتِ ولكنكِ لا تقدرين ان تنزعي حبكِ من قلبي فاهنئي مع زوجكِ واذا كان دعآء مثلي يستجاب فاني ادعو الله ان يجعل حياتكِ بركةً لكِ ولزوجكِ ولكل من ينتسب اليكِ . واني كنت قد وعدت نفسي بان اجعلكِ شريكة حياتي فسآء فألي ولكني لا اطلب لكِ الا الهنآء والسعادة . . .

وفي تلك الدقيقة كان النبيل قد استبطأ زوجتهُ فجآء يطلبها فوجدها في الحديقة ووجد هنري جاثياً امامها فاستشاط من الغيظ وقال لهُ والغضب يقطع كلامهُ اخرج من منزلي حالاً فقد دنّست حرمة الجوار والمودة . ثم طرد هنري من باب الحديقة واقفل وراءهُ ودخل بزوجتهِ الى الدار

اما هنري فاظلمت الدنيا في عينيهِ ولم يعلم ماذا يفعل لان انكار حبيبتهِ اياهُ وظن جارهِ بهِ سوءًا زادا بلبالهُ وغمومهُ فخرج هائماً على وجههِ وبعد ايامٍ سافر الى فرنسا راجياً ان يلهو عن اضطراب قلبهِ بكثرة الاسفار . وفي ذات يوم بينا كان جالساً في نزلٍ بباريز اذ وردت اليهِ رسالةٌ برقية من النبيل جارهِ يقول فيها «اسرع وتعالَ الينا فقد اتضح الامر وتحققت براءتك فعجّل مجيئك للاستيلآء على السعادة التي تنتظرك» فتعجب من مضمون هذه الرسالة وسافر للحال راجعاً الى وطنه ولما دخل قصرهُ وجد النبيل في انتظارهِ فنهض مرحباً بهِ وقال لهُ هلمَّ معي في الحال فاني لا استطيع الصبر الى ان تبدّل اثوابك

ثم جرّهُ بيدهِ الى قصرهِ وادخلهُ البهو فتركهُ فيهِ هنيهةً وخرج ثم عاد اليهِ وقال قم فادخل هذه الغرفة فان زوجتي تنتظرك فيها لتكلمك على انفراد . فدهش هنري من هذه المعاملة ودخل الغرفة وهو حائر لا يفهم المراد من كل ذلك فابصر سيدتين كانت احداهما ربة المنزل واما الثانية فلم يقع نظرهُ عليها جلياً حتى كانت بين ذراعيهِ واذا بها حبيبتهُ متيلدا

وكان سبب اجتماعهما انهُ لما اخذ اللرد زوجتهُ بعد ان طرد هنري شرعت تقصّ عليهِ حديث هنري وسبب جثوّهِ امامها الى ان قالت والذي يتبادر الى ذهني ان هنري هذا يحب اختي ونحن توأمان لا تكاد الواحدة منا تُفرَق عن الاخرى وقد توفي ابوانا ونحن طفلتان فتربينا في مدارس اليتامى ولما بلغنا سنّ الصبوة عزمت رئيسة المدرسة ان تدخلنا في سلك الراهبات ولما ضايقتنا هربنا من المدرسة ثم تشتت شملنا فلم اعلم اين ذهبت اختي ولا علمت هي بمقرّي . فتعجب زوجها من هذه القصة واستفهم من اخوات هنري عن المكان الذي رأى فيهِ حبيبتهُ متيلدا ثم انفذ رسلاً يبحثون عنها فعلموا ان رئيسة المدرسة عرفت بمقرّ متيلدا في مونت كرلو فاحتالت في القبض عليها وادخلتها الدير كرهاً . فارسل اللرد للحال واخرجها من الدير واتى بها الى قصرهِ فاجتمعت بشقيقتها وقصت عليهم حكاية حبها لهنري ولما علم اللرد ذلك ارسل يستدعي هنري حتى اذا اجتمع الحبيبان وعلم كلٌّ منهما ان صاحبهُ لا يزال محافظاً على عهدهِ ولم يكن مانعٌ من اقترانهما انتهت قصتهما كما تنتهي قصة كل عاشقين خدمهما السعد فعاشا اهنأ عيشةٍ انستهما ما مرّ بهما من كوارث الايام وما زالا كذلك الى ان فرّق بينهما الحِمام